الارض كافة، وبين الفلاحين الفلسطينيين المدافعين عن وطنهم من النهب والاغتصاب. وفي كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٧، لم يعد في الامكان تجاهل حقيقة ان الشعب الفلسطيني اعاد النزاع الى سابق عهده؛ وعاد هذا الشعب ليحتل منزلة الخصم الاساسي للدولة العبرية. فلأول مرة منذ العام ١٩٤٨ يسود في أوساط الرأي العام العالمي انطباع ان النزاع الشرق أوسطي ليس نزاعاً حدودياً بين الدول العربية واسرائيل، بل هو صراع بين محتل أجنبي وشعب يناضل لازالة الاحتلال من على أرضه. وليس من السهل على اسرائيل حل هذا المأزق عبر حرب جديدة، مهما كان اتجاهها، أو درجة الحسم فيها.

لقد ألغت الحرب الفلسطينية الجديدة من القاموس الاسرائيلي عبارتي «الحدود الآمنة» والحدود التي «يمكن الدفاع عنها». أي بمعنى ان الجدل الذي يجرى التركيز عليه، الآن، يتمحور في «طابع الدولة التي تدافع الحدود عنها، وليس في شأن مدى منطق تلك الحدود العسكرية»[١٧]. أما الجيش الاسرائيلي، ذراع اسرائيل الطويلة وصاحب الحلول السحرية لكل الأزمات الاسرائيلية الصعبة منذ أكثر من أربعين عاماً، فقد استطاعت الانتفاضة ان تلوي ذراعه، وتعرّي حقيقته «الدفاعية» على الرغم من ادعاءات قادته بـ «طهارة سلاح» جيشهم. ووقف هذا الجيش عاجزاً تجاه الابتكار الحربي الفلسطيني الجديد. وقد اعترف رئيس الاركان الاسرائيلية، الجنرال دان شومرون، بأنه لا يملك حلولاً سحرية لقمع الانتفاضة؛ فهذه معركة «عميقة ومترسّخة في وعي الاشخاص، حيث يظهر التوتر مرة بعد أخرى»[١٨]. ونقلت أوساط صحافية اسرائيلية عن مصادر عسكرية رفيعة المستوى قولها ان الانتفاضة «هي حرب حقيقية خسرناها. والحل هو في التفاوض مع م.ت.ف.»[١٩].

وازاء هذا التبلور للحركة الوطنية الفلسطينية في الاراضي المحتلة، تعزّزت مكانة م.ت.ف. عربياً ودولياً، وفشلت جميع محاولات شق الوحدة الوطنية الفلسطينية، خاصة فيما بين الداخل والخارج. وحققت المنظمة نجاحات كبيرة على أكثر من صعيد. ولا يخفي الاسرائيليون اعجابهم بدقة التنظيم التي يتمتع بها قادة الانتفاضة، وطريقة تحديد الأهداف التي يطرحونها في كل مرحلة من مراحل النضال، بما يتلاءم مع الظروف المتغيرة. فقد تبدّلت العفوية التي ميّزت المرحلة الاولى بقسط من الضبط والقدرة على التوجيه، «وضعفت الدوافع غير المتعلقة بـ م.ت.ف. الى حد ما»[٢٠]؛ وحقق قادة الانتفاضة انجازاً هاماً يتعلق بالمحافظة على وحدة الصف حول دعائم خطة حد أدنى واقعية. ولهذا الانجاز مغزى مباشر رئيس. وأصبح قسم هام من الاسرائيليين ينظر الى الشعب الفلسطيني نظرة جديدة. وحدث تغير في موقف «الأكثرية الصامتة في اسرائيل من الفلسطينيين على جانبي الخط الاخضر؛ وهذا، على المدى الطويل، ثمن الانتفاضة الأغلى»[٢١]. ولم يعد في الامكان تجاهل وجود الشعب الفلسطيني، وضرورة الاعتراف بدوره في تقرير مستقبله.

قرارات مصيرية

لقد أيقظت الانتفاضة نقاشات عديدة من سباتها، هي محور خلاف تاريخي بين مختلف التيارات السياسية في اسرائيل، ولا توجد لها أجوبة محدّدة حتى الآن. ويعود هذا النقاش الى العشرينات والثلاثينات من هذا القرن، وهي السنوات الصاخبة التي تبلورت خلالها الافكار الرئيسة للحركة الصهيونية. وكان النقاش تركّز، آنذاك، على ماهيّة الوجود العربي في فلسطين، وكيفية التعامل معه ؟ وتجدد هذا النقاش بعد حرب العام ١٩٦٧ واحتلال المزيد من الاراضي الفلسطينية والعربية. وجاءت الانتفاضة لتفرض على الاسرائيليين تجديد النقاش، لكن بجدية أكثر، وبشعور حقيقي بالخطر. ويدور الجدل، الآن، حول هويّة الدولة وحدودها ؟ وتعريف سكانها وقدرتهم على